مصادر الفلسفة السياسية

عند الفارابيّ

للفارابي كتاب اسمه في الأغلب : « آراء أهل المدينة الفاضلة » هـذا الكتاب قسمان : قسم فلسفي ما ورائي جمع فيه الفارابي آراءه في الوجود وفي الله وفي النبوّة والخلود وما إليها ، ثم قال ان هذه الآراء يجب أن تكون عقائدَ لأهل المدينة (الدولة) المثلى التي تخيّلها .

من هذه الآراء أن الموجود الأول واحد لا شريك له ولا ضد وهو عقل محض متصف بجميع صفات الكمال ومبرّأ من جميع نواحي النقص ، وهو علة الوجود (سببه) إلا أنه لا يباشر شيئاً من أحوال الوجود : لقد فاض عنه بالضرورة عقل مثله ولكن ليس إياه . هذا العقل الثاني هو الذي تفيض منه الموجودات . أما التفاصيل الباقية من فلسفة الفارابي فأكثرها مأخوذ من أفلاطون وأرسطو خاصةً .

والسعادة عند الفارابي أمر محبوب مطلوب لذاته لا لننالَ به شيئاً آخر (نعيماً في الدنيا أو ثواباً في الآخرة) . والنبوة للقوة المتخيّلة في البشر كلهم . والنبي عادةً من فاق أهل عصره في الإدراك العقلي لحقائق الأمور وفي صحة التخيل للمقبل من الحوادث . والعدل هو حق الأقوياء يحتازونه عن الضعفاء . والخشوع (الدين) حيلة من الضعفاء يرهبون بها الأقوياء ويحملونهم بها وبما يخيّلون إليهم من الثواب والعقاب في الآخرة على أن يتخلوا لهم عن شيء من المغانم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما القسم الثاني من كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة فيتناول فيه الفارابي هيكلاً خيالياً للدولة .

والدولة عنده طبقات متراكبة أدناها طبقة تخدم أهلَ جميع الطبقات التي فوقها ، وفي أعلاها طبقة فيها رئيس واحد (أو بضعة رؤساء) يخدمه أهلُ جميع الطبقات التي هي دونه . وفي ما بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا طبقات عديدة تخدم كلُ واحدة منها ما فوقها ويخدمها ما تحتها .

ويخصّ الفارابي رئيسَ المدينة الفاضلة بكلام كثير ، فهو الأصل في وجود المدينة (الدولة) ، ولولاه لما وُجدت المدينة . ورئيس المدينة الفاضلة نبي وحكيم في وقت واحد ، ثم هو متصف باثنتي عشرة صفة تخصه بجميع الأمور المحمودة وتنزّهه عن جميع الأمور المذمومة .

والدولة نفسها تتبدّى في أشكال منها المدينة الفاضلة (الدولة المثلى) التي يمكن أن تكون كبرى ووسطى وصغرى وأن تظهر بأشكالها الثلاثة في وقت واحد وفي بيئة واحدة أيضاً . ثم هنالك مدن (دول) غير فاضلة يسميها الفارابي مضادّات المدينة الفاضلة ، وهي أنواع كثيرة منها الجاهلة (التي لا تعرِفُ الخير فلا تعمل به) ، ومنها الفاسقة (التي تعرف الخير ولكن لا تعمل به) ، ومنها المبدّلة (وهي التي كانت فاضلة ثم أصبحت فاسقة) ومنها البدّالة (وهي التي تهتم بالمكاسب المادية فقط وتعمل في التجارة مثلا) . وجميع الدولُ غير الفاضلة يمكن أن توجد مع الدول الفاضلة في وقت واحد وجنباً إلى جنب .

* * *

وأكثر الذين يتكلمون على الفارابي يتناولون الموازنة بين « كتاب السياسة » لأفلاطون (وهو المعروف باسم الجمهورية) وبين « كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة » كثيراً أو قليلاً ، وقل منهم من لم يفعل ذلك ، ولا أعلم أحداً فعل غير ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي ما يلي محاولة للموازنة بين كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة وبين كتاب السياسة لأفلاطون من جانب والمصادر الأخرى التي عرفها الفارابي من جانب آخر .

من أين استقى الفارابي آراءه السياسة ؟

ان اسم المدينة الفاضلة وفكرتها الأساسية مستمدّان من أفلاطون . ولكن تفاصيل المدينة الفاضلة تخالف تفاصيل دولة أفلاطون من كل وجه :

يتناول أفلاطون في « كتاب السياسة » (الجمهورية) الكلام على العدالة والأمانة والظلم ، وعلى مدرك الدولة ، وعلى مزاج الحُماة (الجند) وتعليم الذين سيصبحون حماة ، وعلى مراقبة النصوص الأدبية التي تُفرض على الطلاب ، وتأثير الإلقاء والإنشاد ، وعلى الغاية من تعليم الشعر والموسيقى . ثم يتكلم على اختيار الحكام وواجبات الحُماة وعلى الفضائل في الدولة وفي الأفراد ، وعلى أقسام النفس الثلاثة ، وعلى شيوع النساء بين الحماة ، وعلى الملوك الفلاسفة ومدرك الخير والتعليم العالي (الحساب والهندسة والجدل والفلك وعلم الموسيقى) وعلى أنواع الحكم وعلى الصلة بين الفن والحقيقة ، وعلى أن الشعر التمثيلي يخاطب العاطفة لا العقل ، وعلى الخلود والآخرة .

إن معظم هذه الموضوعات لا وجود لها في المدينة الفاضلة . أما الموضوعات المتشابهة عند الفيلسوفين بالأسماء فانها تختلف في الغاية وفي الطبيعة وفي المعالجة :

(أ) الرئيس عند أفلاطون يُختار جسمانياً واستعداداً عقلياً ثم يدرّب على أن يكون في المرشحين للحكم في المدينة بعد الستين من عمره . أما الرئيس عند الفارابي فهو معدّ بالطبع بصفات قد فُطِرَ عليها وليس يمكن أن يكون أي إنسان اتفق ، وهو حكيم ونبي في وقت واحد . ثم إن المدينة عند الفارابي قد وُجدت من أجل الرئيس ، وإن على جميع طبقات المدينة أن يخدموا الرئيس بينما هو لا يخدم أحداً ، لأن طبيعة منصب الرئاسة تجعل الرئيس مخدوماً لا يخدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أحداً . أما عند أفلاطون فالرئيس فرد فيلسوف ، بينما الفارابي جعله إماماً ثم أجاز أن يكون للمدينة الفاضلة رؤساء عديدون .

(ب) وأفلاطون لم يُجِزْ إلاّ دولة فاضلة واحدة ؛ أما الفارابي فقد أجاز مدينة فاضلة كبرى [1] إلى جانب مدينة فاضلة وسطى إلى جانب مدينة (أو مدن) فاضلة صغرى . وهذا شيء استفاده الفارابي من البيئة الإسلامية يومذاك : إن الخلافة (وهي المدينة الفاضلة الكبرى) كانت موجودة إلى جانب الدولة الحمدانية (وهي تقابل المدينة الفاضلة الصغرى) .

ثم إن الفارابي أجاز وجود مضادّات للمدينة الفاضلة (أو للمدن الفاضلة على الأصح) ، فالدولة الفاطمية كانت مضادّة للخلافة العباسية ، والدولة السامانية كانت مضادّة للدولة البويهية ، والدولة الاخشيدية كانت مضادّة للدولة الحمدانية .

هذه الصورة للدولة الفاضلة ولمضادّاتها تناولها الفارابي من بيئته الإسلامية في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) . ولا ينكر أحد أن مثيلات هذه الدول المتضادّة كانت موجودة في زمن أفلاطون ، وفي كل زمن ، ولكن المدن الفاضلة الكبرى والوسطى والصغرى كانت صورة خاصة بالبيئة الإسلامية . ولا ريب في أن أفلاطون تكلم على أشكال مختلفة من الحكم (هي في الحقيقة أنواع من الدول) ، ولكن أفلاطون لم يقرّ وجود هذه الدول في الكتاب الذي خصه بالكلام على الدولة المثلى . ولا ريب في أن الفارابي قد نظر في إجازة الدول غير الفاضلة إلى رأي أرسطو في أن الدولة الصحيحة هي الدولة الواقعة التي يقبلها الشعب . فاذا لم يسرّ الشعب بدولة ، وكان يريد تبديلها ويملك القدرة على ذلك ، فانه يبدّلها . غير أن الفارابي يفارق أرسطو في مدرك أساسي : ان الدولة الصالحة عند أرسطو هي الدولة التي يعمل الحاكم فيها

(١) ان استعمال صيغة التفضيل بعد النكرة لا يجوز ، ولكن الفارابي يستعمل ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على خدمة الشعب ، أما الفارابي فيرى أن الدولة توجد من أجل الرئيس وخدمته .

(ج) وتنظيم الدولة عند أفلاطون تنظيم اجتماعي اشتراكي (أو شيوعي على الأصح) : في المال والنساء مع تبني الدولة للأولاد الأصحاء ؛ ولكنه نظام اشتراكي مشوه بإقرار ثلاث طبقات متميز بعضها من بعض : الحكم في واحدة منها ولا يكون في غيرها ، والعمل (في الأرض والمعمل والتجارة) متروك لواحدة منها على شريطة أن تقدّم للطبقتين البانيتين ما تحتاجان إليه . ثم أن الرقيق جائز في جمهورية أفلاطون !

أما تنظيم المدينة الفاضلة عند الفارابي فهو تنظيم طبيعي ما ورائي : ان نسبة الرئيس إلى المدينة كنسبة القلب إلى الجسد ونسبة الله إلى العالم . وليس للإنسان عند الفارابي يد في تنظيم الدولة ، لأن الله قد نظم هذه الدولة كما نظم الطبيعة سواء بسواء . ولعل هذا المزيج عند الفارابي يزاحم في الغرابة مزيج أفلاطون : شيوعية وطبقات جمهورية وأرقاء ! ولكن المزيجين مختلفان لا يمت أحدهما إلى الآخر بصلة .

فمن أين جاء الفارابي بهذا التنظيم الغريب ؟

بدأ الفارابي تأليف كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » في بغداد (سنة ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م) حيث بدأ دراسة الفلسفة . ولا ريب في أن الفارابي اطلع على كثير من آراء الأقدمين ، مما كان موجوداً في الكتب أو غير موجود فيها ، ومنها آراؤهم السياسية في الدولة . وقد علم الفارابي بلا ريب أن المدن القديمة في امبراطورية العراق كانت مستقلة في بعض العصور ، وكانت تجمعها أحياناً امبراطورية (دول فاضلة صغرى في دولة فاضلة كبرى) كما كانت الحال في أيام الفارابي (دويلات متناثرة في العالم الإسلامي تجتمع اسميا على الأقل في خلافة عباسية) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أن العقدة الحقيقية في فلسفة الفارابي السياسية إنما هي الرئيس : هذا الشخص الذي أوجدت المدينة (الدولة) من أجله ، ثم انها وجدت لتخدمه من غير أن يخدم هو أحداً ، ثم في تلك الطبيعة التي أرادها الرئيس حتى يستطيع الرئيس أن يكون نبياً وحكيماً في آن واحد ، ثم قوله صراحةً أن نسبة الرئيس إلى المدينة كنسبة الله إلى العالم .

هذه الخصائص كلها نجدها أيضاً في النظام السياسي الذي ساد في العراق في الزمن القديم ، قبل حمورابي . والفكرة السياسية التي سادت في أقدم عصور العراق السياسية أن كلّ مدينة كانت تابعة لآله ، وأن الحاكم فيها (الملك) كان يمثل ذلك الآله ويحكم باسمه ؛ وكان أهل المدينة يفلحون ويزرعون ويحصدون ويقومون بسائر الأعمال خدمةً لذلك الإله ، ولم يكن على ذلك الإله أن يخدم أهل المدينة في شيء . ثم لما جاء حمورابي لم يختلف من ذلك اختلافاً أساسياً : إن حمورابي تلقى شريعته من إله الشمس وكان يحكم على أنه نائب ذلك الإله .

وصفات الرئيس ترجع أيضاً إلى الفلسفة السياسية القديمة في العراق .

لما قضى الإسلام على الوثنية في كل مكان وصل إليه بقيت جماعات وثنية تعيش في بيئات مغلقة (صغيرة) تُظهر الوحدانية في بعض الأحيان وتبطن الوثنية القديمة ، ومن هذه الجماعات الصابئة (أو الصابة) أو الحرّانيون (أو الحرنانيون) . وكان الحرنانيون يقولون (الفهرست ، مصر ، سنة ١٣٤٨ هـ ، ص ٤٤٤) : إن النبي هو البريء من المذمومات في النفس والآفات في الجسد ، والكامل في كلّ محمود ، وأن لا يقصر عن الإجابة بصواب في كلّ مسألة ، ويخبر بما في الأوهام ، ويجاب في دعوته بإنزال الغيث ودفع الآفات عن النبات والحيوان ، ويكون مذهبه ما يصلح به العالم ويكثر عامره . هذه الصفات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي أوردها ابن النديم في كتاب الفهرست موجزةً بلا ريب هي الآراء التي فصّلها اخوان الصفا فيما بعد وسموها خصال صاحب الناموس أو صاحب الشريعة . والشريعة عندهم تجمع جانب الدنيا وجانب الدين في المعنى السياسي الواحد . ثم إن اخوان الصفا يرون صراحةً أن الشريعة ليست إلا الدولة . قالوا : « أما اختلاف الشرائع فلا يضرّ بالدين (الرسائل ٤ : ٢٤ — ٢٩) لأن كلّ شريعة تكون بحسب بيئة أهلها المقصودين بها وبحسب زمانهم . والشريعة تكون لأتباعها بمثابة مدينة (دولة) روحانية يعيشون فيها عيشة روحية . وكلما كان عدد أتباع الشريعة أكثر كانوا هم أشدّ سروراً وفرحاً » (الرسائل ٤ : ١٨٧) .

وصاحب الشريعة أو الناموس يحتاج في رأي اخوان الصفا إلى خصال كثيرة جعلوها ثماني وأربعين (الرسائل ٤ : ٢٧) ثم اختصروها فجعلوها اثنتي عشرة (الرسائل ٤ : ١٨٢ — ١٨٦) هي (مع شيء من الإيجاز) : أن يكون تامّ الأعضاء قويّها — جيد الفهم — جيد الحفظ — فطناً ذكياً ذا رأي — حسن العبارة — محباً للعلم إذا جِدّ عليه — محباً للصدق وحسن المعاملة — غير شره في الطعام والشراب والنكاح — كبير النفس عالي الهمة — زاهداً في المال وأمور الدنيا — محباً للعدل وأهله مبغضاً للجور وأهله — قويّ العزيمة جسوراً .

ومن العجيب أن يكون الفارابي قد افترض في رئيس المدينة الفاضلة أن يتصف باثنتي عشرة صفة هي (مع شيء من الإيجاز) أن يكون : تامّ الأعضاء (وأن تكون القوى في تلك الأعضاء مُعِينَةً على ما قُصد منها) — جيد الفهم والتصوّر بالطبع — جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ويسمعه ولما يدركه — حسن العبارة — محباً للتعليم (للتعلم) والاستفادة سهل القبول له — غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح متجنباً بالطبع للّعب — محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله — كبير النفس محباً للكرامة — وأن يكون الدرهم والدينار وسائر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أعراض الدنيا هينة عنده — ثم أن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله مبغضاً للجور والظلم وأهلها ، يعطي النصف [1] من أهله ومن غيره ويحث عليه ، عَدْلاً غير صعب القياد إذا دُعي إلى الحق ، صعبَ القياد إذا دعي إلى الجور — قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي جسوراً عليه .

على أنه ليس من السهل أن نَجْزِمَ في من سبق إلى تعداد هذه الصفات : الفارابي أم اخوان الصفا ! إن الفارابي بدأ تأليف مدينته الفاضلة في بغداد سنة ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) ثم أتمها في دمشق في العام التالي . وكانت وفاة الفارابي سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) . أما جماعة اخوان الصفا فالأغلب أنها تألفت في اوائل القرن الرابع للهجرة (أوائل القرن العاشر للميلاد) ، ولكن أمرهم لم يظهر إلا نحو سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) كما ذكر أبو حيّان التوحيدي (المقابسات ٤٥) . في تلك السنة كان جميع الأشخاص الذين نعرف أسماءهم والذين يقال أنهم وضعوا رسائل اخوان الصفا لا يزالون أحياءاً . على أن أهم من ذلك أن رسائل اخوان كانت لا تزال في ذلك الحين متفرّقة لم تجمع في كتاب واحد .

ثم ليس من المعقول أن يأتي فيلسوف كالفارابي ، بعد أن نال شهرة واسعة وأصبح في السبعين من عمره ، فيغرف من رسائل اخوان الصفا غرفاً — واخوان الصفا بعدُ في عالم الغيب والستر . فلا بد إذن من أن يكون الفارابي قد عرف شيئاً من الفلسفة السياسية للعراق القديم ورتب منها آراءه . ولعل إخوان الصفا أنفسهم أخذوا من الفارابي أو عرفوا المصادر العراقية القديمة من الحرنانيين وأمثالهم . إن من العجيب في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية أن تكون تلك الآراء الوثنية التي عمل الإسلام على محوها قد وَجدت بيتاً حصيناً في فرق الغُلاة من أصحاب البِدَع . وأن أحدنا لا يتوسع إلا قليلاً في مذاهب الحرانيين الذين يقال لهم الصابئة وفي ما اتصل بهم أو شابههم من الحركات كالمانوية والدَيصانية

(١) تجوز بالفتح وبالكسر وتجوز بضم ففتح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم يكرّ البصر في الفرق الغالية من فرق الإسلام حتى يَضِحَ له أن هذه تلك : مادةٌ كلدانية حرّانية وغشاء باطني إسلامي ؛ ثم يعلم أن هذه الفرق لم تتلبس باسم الدين إلا سعياً وراء أهداف سياسية عنيفة أو لطيفة . وحينئذ فقط يدرك أحدنا الحملة التي حملها الغزالي وابن تيمية خاصةً على أصحاب البدع التي لم تكن مذاهب إسلامية بمعنى أنها تخالف سائر الفرق في شيء من التأويل لفهم الإسلام فهماً صحيحاً ، بل كانت فرقاً سياسية دينية ترمي إلى مكافحة الإسلام خارجياً بالثورات والفتن وداخلياً بمحاولة التمزيق لوحدته الروحية ولعقائده الأولى .

ومما يؤسف له أن عدداً من المفكرين المسلمين من المعتزلة ومن الفلاسفة انساقوا في هذا التيار عفواً وفي الأكثر اغتراراً بانطلاق الفكر حراً في العالم الذي يجول فيه الفكر . ومن هؤلاء كان الفارابي الذي تبنى آراء وثنية لأنها جديدة في تعليل حال البيئة التي كان فيها ، ولأنها في الحقيقة كانت تحل مشكلة وجود عدد من الدول الكبرى والصغرى تتوادّ وتتعادى في البيئة الواحدة والزمن الواحد .

من أجل ذلك كله نرى أن مصادر الفارابي في تأليف كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » هي الآتية مرتبة حسب أثرها في آرائه السياسة :

— البيئة الاسلامية بما فيها من تعدد الدول الصغيرة والكبيرة المتآلفة والمتخالفة .

— تاريخ الدول في العراق القديم والنظرية السياسية الدينية التي عاشت من أيام الكلدانيين الحرانيين إلى أيامه في كتب مؤلفة أو في روايات منقولة .

— آراء أفلاطون وأرسطو خاصةً .

وبعد فهذا عرض لمشكلة اعترضت سبيلي في دراسة الفارابي ومحاولةٌ لحلها . فعسى أن يكون في الدارسين من يَشْرَكني في الرأي أننا أمام مشكلة تحتاج إلى حل . ولعل لبعض هؤلاء رأياً آخرَ ينير سبيل البحث .

عمر فروخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net